الاستماع إلى الصمت الاجتماعي

الأنثروبولوجيا مطلب ضروري لإعادة البناء بشكل أفضل

جيليان تيت

ابتهج صناع السياسات والناخبون في جميع أنحاء العالم عندما انتشرت الأخبار في عام ٢٠٢٠ عن تسابق العلماء في الجهود المبذولة لابتكار لقاحات مضادة لفيروس كوفيد-١٩. ولا عجب في ذلك: فتطوير هذه اللقاحات هو انتصار للعلوم الطبية وعلوم الكمبيوتر في القرن الحادي والعشرين، مما يزيد من احتمالات نجاح العالم في دحر الجائحة.

ومع ذلك، تبيَّن في عام ٢٠٢١ أن هناك مشكلة: فبغض النظر عن أن توزيع اللقاح قد ثَبُت أنه غير منصف إلى حد مؤسف وخطير، وخاصة بسبب هياكل الاقتصاد السياسي العالمي، تتضح صعوبة التطعيم حتى في بعض البلدان الغنية. والسبب؟ الثقافة — التي تُعرَّف بأنها شبكة من الطقوس والرموز والأفكار والأنماط المكانية والانتماءات الاجتماعية تشكل البشر أينما كانوا يعيشون ولا تحظى بالتقدير الكامل رغم ذلك. ففي أماكن مثل الولايات المتحدة، على وجه الخصوص، كانت هناك مقاومة شديدة للقاحات – أو «تردد في التطعيم» إذا ما أردنا استخدام التعبير المهذب — مما أدى إلى تقويض الجهود المبذولة لوقف انتشار الجائحة.

الرسم التوضيحي: ISTOCK / RAWPIXEL; CNYTHZL; TATIANA PANKOVA

ورغم نجاح بعض البلدان — مثل فرنسا — في التغلب على ظاهرة التردد في التطعيم في البداية (إلى حد ما على الأقل)، فإن مجرد وجود مثل هذه المعارك يوضح نقطة بالغة الأهمية، وإن كان يتم تجاهلها غالبا، حول صنع السياسات اليوم. والفعالية في مواجهة التحديات المتسارعة (أو حتى البطيئة) تتطلب ما هو أكثر من الاعتماد على ما يسمى بالعلوم الطبيعية، مثل الأبحاث الطبية أو قوى البيانات الضخمة. فنحن بحاجة إلى العلوم «الاجتماعية» أيضا لفهم سلوك البشر وثقافتهم.

أو بعبارة أخرى، إن عدم محاولة حل مشكلات السياسة العامة اليوم إلا بالاعتماد على مجموعة واحدة من الأدوات الفكرية التي يتم استخدامها برؤية ضيقة يعد خطأ فادحا. فنحن بحاجة إلى رؤية أوسع نطاقا، لتقدير السياق الإنساني الأوسع نطاقا وكيف يمكن للعناصر التي تقع خارج النموذج الخاص بك أو مجموعة البيانات الضخمة، أو التجربة العلمية أن تؤثر على ما يحدث. والثقافة — حسب التعريف أعلاه، مهمة، إلى جانب النظم البيئية والسياسية — وليس فقط أجزاء نظمنا الثقافية التي نذكرها صراحة («الكلام») ولكن أيضا الأجزاء التي نتجاهلها غالبا لأنها محرجة أو مألوفة أو شديدة التعقيد إلى حد لا يسمح بمناقشتها («الصمت»).

نحن بحاجة إلى رؤية أوسع نطاقا للتعامل ليس مع الجوائح فحسب، ولكن أيضا مع مجموعة من القضايا الأخرى المتعلقة بالتنمية الاقتصادية وصنع السياسات — كتغير المناخ والمعاشات التقاعدية وغيرهما. إن محاولة وضع سياسة فعالة على أساس فني فقط، كما هو الحال مع نموذج اقتصادي محدود النطاق أو مع العلوم الهندسية، يشبه السير عبر غابة مظلمة في الليل ناظرا إلى بوصلة فقط. فأيا كان مدى جودة أداتك من الناحية التقنية، إذا قمت بتثبيت عينيك عليها بمفردها، سوف تتعثر على جذر شجرة، وهو ما يعني أن السياق مهم.

فكيف يمكن لصناع السياسات تطبيق تلك الرؤية الأوسع نطاقا؟ أرى أن إحدى الطرق للقيام بذلك هي اقتباس بعض الأفكار من مجال تدربت فيه، قبل أن أصبح صحفية في المجال المالي، وهو: الأنثروبولوجيا الثقافية. وقد يبدو ذلك غريبا لبعض صناع السياسات، نظرا للصورة السائدة عن هذا التخصص والتي غالبا ما تكون قديمة وغريبة نوعا ما — حيث يُنظَر إلى مؤيديه على أنهم نسخ أكاديمية من إنديانا جونز، يقضون وقتهم في السفر إلى أماكن نائية لدراسة الطقوس الملونة التي تبدو بعيدة كل البعد عن التحديات الاقتصادية في القرن الحادي والعشرين.

غير أن هذه الصورة النمطية ليست خاطئة فحسب، بل ينتج عنها أيضا فرصة ضائعة هائلة. نعم، يكرس علماء الأنثروبولوجيا جهودهم لدراسة الثقافة الإنسانية، بكل اختلافاتها الرائعة. لكنهم لا يفعلون ذلك بأسلوب متعالٍ (على خلاف علماء الأنثروبولوجيا في أوائل القرن التاسع عشر، الذين كان لديهم ميل مؤسف نحو العنصرية والتمييز على أساس الجنس والإمبريالية). وبدلا من ذلك، يرى علماء الأنثروبولوجيا في القرن الحادي والعشرين أنه من المهم دراسة الثقافات المختلفة باحترام، لأن ذلك لا يؤدي إلى التعاطف مع الغرباء فحسب، وهو أمر بالغ الأهمية في ظل التكامل العالمي، بل إنه يساعدنا أيضا على فهم ثقافاتنا بشكل أفضل — أينما كانت نشأتنا في البداية. ويحقق هذا التوجه مكاسب في كل الاتجاهات.

وفي نهاية المطاف، وكما يقول المثل الصيني: «لا تستطيع السمكة رؤية الماء». فلا يمكن للناس إجراء تقييم واضح للافتراضات الثقافية الأساسية التي استوعبوها من محيطهم ما لم يأخذوا خطوة إلى الوراء ويقارنوها بافتراضات الآخرين — أو يقفزون من حوض السمك. إن انغماسك في حياة الآخرين وتذوق قدر قليل من الصدمة الثقافية، كما يفعل علماء الأنثروبولوجيا، يجعلك تدرك بمزيد من الموضوعية نقاط القوة والضعف في مجتمعك — و«الصمت الاجتماعي». وكميزة إضافية، من شأن التمعُّن في الثقافات الأخرى أن يعرفك على أفكار وطرق جديدة لحل المشكلات. وأخيرا وليس آخرا، نظرا لأن علماء الأنثروبولوجيا يميلون إلى النظر إلى الأمور من منظور الدودة (أي النظر إلى الأشياء من أسفل إلى أعلى، بطريقة شاملة)، فإن إلقاء نظرة فاحصة على الثقافات الأخرى يقدم منظورا مختلفا عن التحليلات من منظور الطائر (أي من أعلى إلى أسفل).

ويبدو هذا مفهوما مجردا. لكن لنفكر للحظة فيما كان يمكن أن يحدث إذا كان صناع السياسات قد استخدموا عدسة عالم الأنثروبولوجيا عند وقوع جائحة كوفيد-١٩. إلى حد ما، لو كان لدى الحكومات الغربية والناخبين قدر أكبر من المعلومات عن انتشار الأوبئة في الثقافات الأخرى لما ارتكبوا هذا الخطأ الكبير. فافتراض أن أمراضا مثل سارس وإيبولا — وكوفيد-١٩ — كانت مشكلات تخص الجانب الآخر من العالم، في ووهان، أو تخص أشخاصا بدوا «غير مألوفين» أو «غريبي الأطوار»، أدى إلى تراخٍ خطير. كذلك لو كان لدى الحكومات الغربية قدر أكبر من المعلومات لما شعرت بالفخر المبالغ فيه بنظم الرعاية الصحية الخاصة بها. فالنظر إلى الطريقة التي استطاع بها الغرب تطوير الأدوية، ونقل رسائل الرعاية الصحية، وتعزيز الصحة العامة كان من المفترض أن يسهِّل رؤية أوجه القصور.

وكان يمكن لعقلية عالم الأنثروبولوجيا أن تساعد الحكومات الغربية على جلب دروس قيِّمة من مناطق أخرى. فبالنظر إلى الكمامات كمثال، سنجد أن علماء الأنثروبولوجيا العاملين في آسيا قد أشاروا منذ فترة طويلة إلى أن فعالية الكمامات لا تعتمد على مجرد العوامل المادية — أي قدرة النسيج على الوقاية من الجراثيم — بل إن ارتداء كمامة يعد بمثابة حافز نفسي قوي يُذكِّر الناس بتغيير سلوكهم، ويشير إلى التزام مرتديها بحماية مجموعة اجتماعية، وهو أمر بالغ الأهمية أثناء أي جائحة. وهذا يشير إلى أن صناع السياسات الذين يحاولون التصدي للجائحة ينبغي أن يستخدموا كل إشارة ممكنة لتشجيع

إذا تجاهلنا السياق الثقافي والبيئي لحياة الناس، سنعاني جميعا.

الناس على اتِّباع هذه الممارسة، حتى لو كانت تتعارض مع الأفكار الغربية حول المذهب الفردي. لكن ذلك لم يحدث في البداية في بعض الأماكن. ففي المملكة المتحدة على سبيل المثال، قامت الحكومة بإثناء الناس عن ارتداء الكمامة في البداية، وحتى بعد أن غيرت أسلوبها في التعامل مع الوضع لاحقا، تجنب رئيس الوزراء، بوريس جونسون، ارتداء الكمامات في الأماكن العامة. ورغم أن هذا الموقف تغير في نهاية المطاف، فإن صناع السياسات في بريطانيا (وبلدان أخرى) ربما كان يمكنهم إيلاء اهتمام أكبر لنشر رسائل متسقة لو كان لديهم قدر أكبر من المعلومات عن التجربة الآسيوية.

وبالمثل، كان ينبغي للحكومات أن تدرك في وقت سابق أهمية السياق الثقافي عند محاولة نشر رسائل الرعاية الصحية وتغيير السلوك، حيث يندر أن يفكر الناس في المخاطر بالطريقة التي يفكر بها العلماء. وأي شخص تمكَّن من معرفة أي شيء عن فيروس إيبولا في غرب إفريقيا عام ٢٠١٤ يعي هذه النقطة جيدا، حيث لم يتم التغلب على المرض — بعد أخطاء سابقة — إلا عندما أصبحت الرسائل أكثر حساسية تجاه السياق الثقافي وتم مزج العلوم السلوكية بالأنثروبولوجيا والعلوم الطبية والحوسبة. فعلى سبيل المثال، عندما قامت المجموعات الصحية العالمية في البداية ببناء مراكز لعلاج ضحايا فيروس إيبولا في عام ٢٠١٤، كانت جدران هذه المراكز غير شفافة، وهو الأمر الذي جعل من المستحيل على أسر الضحايا رؤية ما كان يحدث لأحبائهم، وكانت الرسائل المقدمة حول فيروس إيبولا تحتوي على مصطلحات يتعذر على السكان المحليين فهمها. وعندما أصبحت الرسائل أكثر حساسية وأعيد تصميم جدران مراكز العلاج لتكون شفافة، زاد الامتثال لتعليمات الأطباء. وبالتالي فإن الاستماع إلى الأصوات المحلية أمر بالغ الأهمية.

وقد تم تطبيق بعض هذه الدروس حول الحاجة إلى الحساسية تجاه السياق الثقافي عند التعامل مع جائحة كوفيد-١٩. ورغم تقديم رسائل التطعيم عن طريق العلماء فقط في البداية، فإن حكومات الولايات المتحدة وأوروبا، على سبيل المثال، أدركت (بعد تأخير) أن رسائل «النخبة» هذه لا تجد صدى لدى بعض الأشخاص، وتحولت إلى أصوات المجتمع. لكن يجب تطبيق هذا الدرس الآن على العديد من التحديات الأخرى على صعيد السياسات أيضا. وربما يكون تغير المناخ هو المثال الأكثر أهمية. فما لم تتمكن الحكومات والعلماء من تقديم رسائل بيئية بطرق لها صدى لدى الثقافات المختلفة، مع تقديم الحوافز المناسبة، فلن يستطيعوا حشد تأييد الناخبين للسياسات الخضراء أو إقناع الناس بقبول التغيرات السلوكية، ناهيك عن تحفيزهم على التعاون من أجل صالح الآخرين. غير أن نماذج السياسات الخضراء من أعلى إلى أسفل غير كافية: فنحن بحاجة إلى منظور الدودة أيضا، إلى جانب التعاطف مع حياة الناس، لإحداث تحول عادل وتجنب ردود فعل عكسية تجاه الإصلاحات الخضراء.

ولنتأمل المواقف تجاه الطاقة المتجددة. ففي رأي النخب الحضرية الغربية، يبدو بديهيا أن مصادر الطاقة مثل الرياح والطاقة الشمسية أفضل من الناحية الأخلاقية من الوقود الأحفوري مثل الفحم. غير أن هذه النخب الحضرية تعيش بعيدا عن المناطق الريفية التي قد تتضرر من بناء توربينات الرياح على سبيل المثال. كذلك فإن هذه النخب لا تعاني من فقدان الهوية (ومصدر الرزق) الذي يمكن أن يحدث في بلدة للتنقيب عن الفحم عند إغلاق المنجم المحلي أو من المشاق الاقتصادية التي يواجهها الفقراء عند ارتفاع تكلفة النقل. وينبغي التعاطف مع الاستراتيجيات الفعالة لمكافحة تغير المناخ، إلى جانب الوعي بأن معظم المواطنين العاديين لا يرون العالم بالطريقة التي يراه بها المهندسون والاقتصاديون.

وأرجو ألا يُساء فهمي: فأنا لا أقول إن الاقتصاديين والأطباء وعلماء الكمبيوتر والممولين ينبغي أن يتخلوا عن أدواتهم، ولا إن الأنثروبولوجيا الثقافية هي عصا سحرية تمنح الحكمة. فعلى غرار جميع التقاليد الفكرية، هناك أوجه قصور تشوب هذا التخصص، وأبرزها صعوبة قياس أفكاره. فنظرا لأنه في الغالب يمثل عدسة نوعية، وليست كمية، ننظر من خلالها إلى العالم، قد يكون من الصعب توصيل الرسائل. وقد تبدو محاولات تعريف الثقافة كما لو كنا نطارد الصابون في حوض الاستحمام: فهو موجود في كل مكان، ولكن لا يمكن حصره في مكان محدد.

والنقطة الرئيسية هي أنه إذا تجاهلنا السياق البيئي والثقافي لحياة الناس، فسنعاني جميعا. وعلى العكس من ذلك، إذا قمنا بمراعاة هذا السياق في تحليلنا، يمكننا إيجاد أدوات أكثر فعالية من خلال السياسات، مع وجود ضوابط وتوازنات أفضل. والأمر الأساسي هو الجمع بين علوم الكمبيوتر والعلوم الطبية والاقتصادية والمالية والعلوم الاجتماعية والمزج بين منظور الدودة ومنظور الطائر. فمن شأن ذلك أن يساعدنا في دراسة كل من الكلام في حياتنا والصمت — وإعادة البناء بشكل أفضل. FD

جيليان تيت حصلت على شهادة في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية، لكنها الآن رئيس تحرير جريدة الفايناشيال تايمز بالولايات المتحدة. وهي مؤلفة كتاب *Anthro-Vision: A New Way to See in Business and Life*.